بسم الله الرحمن الرحيم

٥٢٦ .

الحركة الوهابية

الحركة الوهابية

رد على مقال
للدكتور محمد البهي
في نقد الوهابية

بقلم
الدكتور محمد خليل هراس

دار الكاتب العربي

مقدمة

لأستاذنا الدكتور محمد البهي كتيب نشرته «دار الفكر» ببيروت، عالج فيه الفكر الإسلامي في تطوره وتتبعه في أدواره المختلفة بين الصعود والهبوط، وبين الحركة والجمود.

وقد عقد في هذا الكتيب فصلاً عن الحركة الوهابية، باعتبارها امتداداً للحركة الدينية الاصلاحية التي قام بها في القرن الثامن الهجري شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقد ملأ الدكتور الكبير مقاله عن الوهابية بمزاعم لا تتفق مع الحق، ولا سند لها من الواقع، ونقدها نقداً جانب فيه الانصاف، ولم يراع فيه موازين البحث العلمي.

ومعلوم أن النقد التنزيه لأي أمر من الأمور ، هو الذي لا يغمط الحسنات بقدر ما لا يغفل السيئات ، ولكن دكتورنا لم يذكر لهذه الحركة المباركة ولا حسنة واحدة ، بل كل ما ورد في مقاله عيوب ومثالب ، وإلقاء التهم جزافاً بلا حساب ، مما يوحي بأنه كان واقعاً تحت تأثير عوامل معينة .

نعم ، إن الذي يقرأ النقد الموجه من الدكتور البهي للحركة ، ثم يوازن بينه وبين المبادىء الذاتية لتلك الحركة ، وما قامت به في الماضي ولا تزال تقوم به من إصلاحات ضخمة في مجالي العقيدة والعمل، يعجب للمصادر التي اعتمد عليها الدكتور في نقده ، بحيث لا يداخله أدنى شك في أنه استقى ذلك مما كتبه أعداء الحركة عنها .

وعهدنا بالدكتور الكبير أنه يسلك دائماً في كل ما يكتبه سبيل التحقيق العلمي ، ويلتزم جانب الدقة والتمحيص ، وقد تعلمنا منه ذلك أثناء تتلمذنا له في مادة الفلسفة الإسلامية بالدراسات العليا بكلية أصول الدين إحدى كليات الجامعة الأزهرية . وكان لي أنا شخصياً شرف إشرافه على رسالتي التي حصلت بها على العالمية من درجة أستاذ وكانت بعنوان : « ابن تيمية السلفي » .

ولكنه في هذا الفصل من كتابه خالف معهوده ، فألقى القول على عواهنه ، من غير تثبت ولا تحقيق .

ونستأذن أستاذنا الكبير أن نناقش ما كتبه عن تلك الحركة قضية قضية ، فإنه مهما كان عزيزاً علينا وحبيباً إلى قلوبنا ، فإن الحق آثر عندنا حتى من نفوسنا ، وقديماً ناقش أرسطو فلسفة أستاذه أفلاطون ، وقال في ذلك كلمته المشهورة :

« أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق آثر لدينا من أفلاطون » .

ولنبدأ بالتعقيب على مقال الدكتور بعد أن نقدم بين يدي نقدنا له ، تلخيصاً لذلك المقال نفسه .

أسس الحركة الوهابية

نشأة الحركة الوهابية :

لقد خصص سعادته الفصل الرابع والأخير من كتابه « الفكر الاسلامي في تطوره » للكلام عن الحركة الوهابية ، فأرخ لها من جانبين :

الأول : من جانب الأحداث السياسية وصلتها بالحكومة القائمة على رعايتها .

الثاني : من جهة أنها حركة دينية ترسمت حركة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

ثم قال : « والذي يهمنا من حركة محمد بن عبد الوهاب هو الجانب الثاني بالذات » .

ثم قدم ترجمة مختصرة لمؤسس الدعوة ـــ رحمه الله ـــ فذكر رحلاته في طلب العلم إلى معظم العواصم الإسلامية مثـــل مكة والمدينة في الحجاز ، والأحساء في منطقة الخليج العربي ، والبصرة وبغداد فيما بين النهرين ، ودمشق في سوريا ، وأصفهـان وقم في إيران ، وذكر أنه أقام في هذه الأخيرة مدة تزيد على اثني عشر عاماً قضاها في الدرس والتعلم ، وأنه بهذه الرحلة الطويـــلة ضم معرفة تجريبية واقعية عن الاسلام والمذاهب الإسلامية ، وأن شأنه في ذلك شأن أستاذه ابن تيمية من قبل وشأن أصحاب الحركات الإسلاميـة التي جاءت بعده ، وأنه لما عاد إلى بلدته « العيينة » صمم على الجهر بدعوته فجهر بهـــا ، ولكنه صادف معارضة شديدة ، فرحل من العيينة إلى « الدرعية » في شمال الرياض حيث يقيم الأمير محمد بن سعود الذي رحب به وأظله بحمايته ، وهناك تعاهد الشيخ والأمير على أن يبقى الشيخ في مقر الأسرة السعوديـــة ، وفي مقابل ذلك يناصر الأمير دعوة الشيخ بقوة السلطان .

وظل الأمر على ذلك إلى أن توفي الشيخ رحمـــه الله في سنة ١٧٩٢ م .

وبعد وفاة الشيخ والأمير تعاهد أبناء الأسرتين بالاستمرار في تنفيذ اتفاق والديهما ، ولم يزل الوضع في صلة الدعوة الوهابية بالحكومة السعودية على ما كان عليه حتى الوقت الحاضر .

ثم يقول سعادته : « وبهذا التعاهد اجتمع لهـــذه الدعوة سلطان الحاكم وقوة الايمان بها ، وقلما اجتمع الأمران في حركة دينية ، بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين سوى هذه الحركة ، ومن هنا كان يؤمـــل كثيراً في نشاط هذه الحركة » .

ثم أرخ سعادته بعد ذلك الجانب السياسي لهذه الحركة ، فبين كيف أفادت من اتساع حكم السعوديين وازدياد نفوذهم في شبه الجزيرة العربية ، حتى دخلت مكة والمدينة مع الفتح السعودي للحجاز ، وبذلك تهيأت لها الفرصة في موسم الحج لشرح أسسها ونشر تعاليمها .

فانتشرت الدعوة عن طريق هذه اللقاءات التي كانت تتم بمكة والمدينة في موسم الحج ، حتى وصلت إلى الهند وأندونيسيا شرقاً ، وإلى السودان والشمال الأفريقي غرباً .

ثم تحدث عن اتساع نفوذ السعوديين خـــارج شبه الجزيرة

العربية حتى وصل عمان وزبيد في جنوبي اليمن ، ووصل إلى قلب العراق وضواحي دمشق ، مما أزعج الخليفة التركي في الاستانة ، وأثار مخاوفه ، فكلف واليه بمصر « محمد علي باشا » بحرب السعوديين وردهم إلى مقر ولايتهم الأول .

ثم يقول سعادته : « ولكن ما لبث النفوذ السعودي أن عاد بالتدريج إلى قوته ، وإلى سيطرته نهائياً على نجد والحجاز على نحو الوضع القائم منذ سنة ١٩٢٥ م » .

الحركة الوهابية تدعو إلى توكيد التوحيد :

ثم يبدأ الحديث عن الوهابية ، كحركة دينية إصلاحية ، فيرجع أسس الدعوة الوهابية إلى ثلاثة أنواع :

الأول .. فيما يتصل بالأصول وهي العقيدة .

وهنا يقول : « فإنها تدعو إلى توكيد التوحيد ونفي الشرك ، بحيث تقصر العبادة على الله وحده » .

وهذا كلام جميل وتصوير صادق مجمل ، لهدف الدعوة في هذه الناحية من التوحيد ، أعني توحيد الإلهية الذي يقوم على

إخلاص الدين لله ، والتوجه اليه وحده بجميع أنواع العبادات ، ولهذا كان هدف الدعوة الأول هو القضاء على كل ما ينافي هذا التوحيد من مظاهر الشرك والوثنية التي كانت قد استشرت في العالم الإسلامي كله ، واتخذت صوراً متعددة ، كعبادة الموتى ، والاستعانة بأصحاب الأضرحة ، وتقديم النذور والقرابين لهم ، والتبرك بالأحجار والأشجار والمغارات ، والاعتقـــاد في السحر والتنجيم والعرافة وأنواع الشعوذة .

فجدّت الدعوة في القضاء على ذلك كله ، بإزالة ما كان الناس يفتتنون به من القبور والحجارة ، ثم ببيان حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وبيان الأمور المنافية له .

وكان كتاب « التوحيد » الذي ألفه مؤسس الحركة رحمه الله ، يعتبر في ذلك الوقت دستوراً لدعاة الحركة يعلمونه الناس ويشرحون لهم فصوله ومسائله .

ثم يعقب الدكتور على ما تقدم بقوله : « ويفهم من معنى القداسة والعبـــادة كل معنى يقوم على الاحترام ولو كان بحكم الإلف والعادة » .

يعني بذلك سعادته أن الوهابيين قد اشتطوا في تحديد مفهوم

العبادة ، فأدخلوا فيه ما كان من الاحترام والتقديس قائمـــاً على الإلف والعادة .

ولم نسمع قبل اليوم أن الإلف والعادة يجعلان عبادة غير الله مشروعة وسائغة ، فإذا كان الناس قد ألفوا أن يقيموا القباب على أضرحة الموتى ، وأن يستغيثوا بهم في الملمات ويدعوهم لقضاء الحاجات ، ويتملقوهم بالنذور والقربانات ، وأن يقفوا أمـــام مقاصيرهم خاشعين ، وينادوهم متوسلين متذللين ، فذلك شيء لا ضير فيه ولا ينافي توحيد العبادة ـــ في نظر دكتورنا ـــ لأنه من قبيل الإلف والعادة .

ولو صح منطق الدكتور في الإغضاء عن كل ما يُفعل بطريق الإلف والعادة ، لما كان هناك داع لإرسال الرسل ، فإن أممهم إنما كانت تفعل ما تفعل من ألوان الشرك والمعاصي على سبيل الإلف والعادة ، وكذلك المشركون من العرب الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقاتلتهم ، ونزل القرآن بذمهم ، وتوعدهم بالنار المؤبدة ، ما كانوا يزاولون أعمالهم الشركية ، من تقديم النذور ونحر الذبائح ومن الطواف والدعاء ، إلا على جهة الإلف والعادة .

ولهذا حكى القرآن عنهم أنهم كانوا إذا نهوا عن ذلك قالوا :

« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

الحركة الوهابية تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة :

ثم يقول سعادته : « فبناء القبور على وجه الأرض ، وزيارتها في انتظام ، والوقوف عندها في خشوع ، ليست منافذ ينفذ منها الإنسان إلى الشرك وعدم التوحيد بل هي شرك على الحقيقة » .

وهذا كلام عار عن الصحة ، بل هو تجن على الحقيقة ، ولا ينم إلا عن رغبة في التشويه والتشهير ، فإن الذي تعتبره الدعوة شركا على الحقيقة ليس هو بناء القبور على وجه الأرض ولا زيارتها في انتظام الخ .. بل هو ما يرتكب أثناء الزيارة لهذه القباب ، من دعاء صاحب القبر والاستعانة به ، وطلب الحاجات واستمداد البركات منه ، ثم وضع النذور في صندوقه ، وسوق الذبائح إلى ساحته والإهلال عليها باسمه ، إلى غير ذلك مما لا يشك مسلم في أنه شرك صريح .

وأما ما ذكره الدكتور من بناء القبور وإشرافها وإقامة القباب عليها واعتياد زيارتها الخ .. فهو وإن لم يكن شركاً لكنه ذريعة إلى الشرك ، لأنه يفضي إلى تعظيم هذه القبور وعبادتها ، ولهذا

حرّمه الإسلام وأوجب تسوية القبور بالأرض ، ونهى عن اشرافها وتجصيصها ، واتخاذ المساجد والسرج عليها ، كما في الحديث الذي رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وقد روى مسلم عن أبي الهياج الأسدي أن علياً رضي الله عنه قال له : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع قبراً مُشرَفاً إلا سوّيته ولا صورة إلا طمستها » .

ولو لم تقم الدعوة الوهابية بهدم القبور المشرفة وتسويتها تطبيقاً لهذه المبادىء الإسلامية ، بعد أن مكّن الله لها في أرض الحجاز ، لكانت — لا قدر الله — خائنة لهذه المبادىء ، ولكانت دعوة نظر وكلام فقط .

ومن العجيب أنه في الوقت الذي يشجب فيه الدكتور ومن وراءه من القبوريين ، الحركة الوهابية ، وينعتونها بالتشدد ، يلومها أنصار التوحيد الحق على الإسراف في التسامح ، حين يرون بعض البدع الشركية لا تزال ترتكب عند الحرمين الشريفين ، من جانب هؤلاء الذين عايشوا هذه البدع قروناً طويلة قبل أن يظلل الحكم

السعودي على الحجاز براية التوحيد المباركة ، ولكن الدعوة دائماً تؤثر جانب اللين ، وتدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى تقطع الطريق على خصومها الذين يرمونها بالتزمت والجفاء .

الحيطة الواجبة لأعظم أصل في الإسلام :

ثم يقول سعادته : « وهنا في هذه المبالغة يكمن عامل الفرقة بينهم وبين بقية المسلمين ، فبينما هم يرون أنفسهم موحدين وأهل توحيد ، ويرون غيرهم ممن لا يسلك سبيلهم في المبالغة مشركين ، إذا بغيرهم ينظرون إليهم على أنهم أهل تشدد وتزمت ، وأصحاب ضيق في الأفق والفهم لهذا الأصل الإسلامي وهو أصل التوحيد » .

والكلام هنا مع الدكتور في تحديد المبالغة التي يكمن فيها عامل الفرقة بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين ، فهل إذا قامت الوهابية بتنفيذ ما أمر به الشرع من هدم القبور وتسويتها صيانة لجانب التوحيد ، ودفاعاً عن حماه المقدس ، يعتبر ذلك مبالغة منها تستحق عليها أن ترمى بالتشدد والتزمت ، وتعد خارجة على بقية المسلمين ؟

ألا يذكر الدكتور أنه درس فيما درس من أصول الفقه قاعدة